IUGJEPS
Vol30, No3, 2022, pp338-369
ISSN 2410-5201
مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية (عقيدة – تفسير – حديث)

تاريخ الإرسال (2021-7-24)، تاريخ قبول النشر (2021-9-28)

مواضع (ويــلٌ) في القرآن الكريم دراسة موضوعية

اسم الباحث: د. أحمد سليمان الرقب * 1

1 اسم الجامعة والبلد: قسم الدراسات الإسلامية - جامعة العلوم التطبيقية الخاصة -الأردن

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:

E-mail address: drriqib@gmail.com

https://doi.org/10.33976/IUGJIS.30.3/2022/12

الملخص:

تناولت هذه الدراسة المعاني الكثيرة لـمواضع (ويلٌ) في القرآن الكريم في ضوء سياقاتها المتنوعة، وما اتصل بها من أعمال قبيحة وسلوكيات خطيرة تستوجب عقوبات رادعة عاجلة وآجلة، مادية ومعنوية، من شأنها أن تصحح المسار الإنساني في مجالات متعددة لا تخرج عن مسارين رئيسين:

- الأول: الإيمان والعقيدة.
- الثاني: الأخلاق والسلوك.

كلمات مفتاحية: ويل–القرآن الكريم– موضوعية

'Weil' in the Holy Quran: An Objective study

Abstract:

This study dealt with the many meanings of Will in the Koran in light of its diverse contexts, and the related ugly acts and dangerous behaviors that require immediate and future deterrent sanctions, material and moral, that will correct the human path in multiple areas that do not depart from two main paths:

First : faith and worship

Second : ethics and behavior

Keywords: 'Weil' -the Holy Quran- Objective

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد:

فإن الجمع بين واجب التدبر والتذكر وفقاً لقوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) [ص: 29]، من شأنه أن يُسعفنا بكثير من العبر والدروس والقيم والاتجاهات التي تسهم في صياغة الشخصية الإسلامية لتصبح عنصر بناء ومشعل هداية في عالم تمور فيه الشبهات والشهوات مورًا.

*** أهداف البحث :**

1- تقديم نموذج عملي للجمع بين التدبر والتذكر من خلال دراسة مجموعة من آيات التنزيل .

2- إبراز المحور القرآني الأصيل في الجمع بين العقيدة والسلوك .

3- التمييز بين المعنى الأصيل للفظ القرآني وما طرأ عليه من روايات ضعيفة .

***مشكلة الدراسة وأسئلتها :**

بوسع الباحث أن يوضح مشكلة الدراسة على النحو الآتي :

اختلطت المعاني اللغوية لمعنى ويل في القرآن الكريم بالنقولات والروايات الضعيفة في كثير من معاجم اللغة وفي كتب المفسرين وغيرها، وبالتالي كان لابد من **الإجابة على الأسئلة الآتية :**

الأول : ما المعاني اللغوية لمواضع (ويلٌ) في القرآن الكريم وفي لسان العرب

الثاني : ما السياقات التي ورد فيها هذا اللفظ (ويلٌ) في القرآن الكريم

الثالث : وما القضايا أو السلوكات التي ترتب عليها هذا الوعيد الشديد بـ (ويلٌ) في القرآن الكريم

*** الدراسات السابقة:**

بالرغم من المواضع المتعددة لمادة (ويل) في القرآن الكريم، إلا أنني وفي حدود اطلاعي لم أعثر على بحث يحقق الأهداف المذكورة .

*** منهجية البحث: تنوعت مناهج البحث تبعاً للأهداف المرجوة :**

1- التتبع والاستقراء .

2- التحليل والمقارنة .

*** هذا وقد جعلت الدراسة في مبحثين ومجموعة من المطالب :**

- **المبحث الأول :** جمع مواضع (ويلٌ) في القرآن الكريم وبيان معانيها في لسان العرب ، وعند المفسرين . **ويتضمن ثلاثة مطالب :**

- **المطلب الأول:** سرد الآيات بحسب ترتيب المصحف وتصنيفها .

- **المطلب الثاني:** (ويل) في لغة العرب ولسانهم .

- **المطلب الثالث:** المقصود بـ (ويل) عند المفسرين .

- **المبحث الثاني :** دراسة موضوعية ويشمل أربعة عشر مطلبًا .

- **الخاتمة** وفيها أبرز النتائج والتوصيات .

المبحث الأول : جمع مواضع (ويلٌ) في القرآن الكريم وبيان معانيها

في لسان العرب ، وعند المفسرين :

المطلب الأول: سرد الآيات بحسب ترتيب المصحف وتصنيفها [1]

1- (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) [البقرة: 79] .

2- (اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) [إبراهيم: 2] .

3- (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [مريم: 37] .

4- (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) [الأنبياء: 18] .

5- (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) [ص: 27] .

6- (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [الزمر: 22] .

7- (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ) [فصلت: 6] .

8- (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ) [الزخرف: 15] ، وتلتقي مع سورة مريم .

9- (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) [الجاثية: 7] .

10- (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) [الذاريات: 60] .

11- (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [الطور: 11] .

12- (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [سورة المرسلات عشرة مواضع بحسب أرقام الآيات : 15، 19، 24، 28، 34، 37، 40، 45، 47، 49] .

13- (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) [المطففين: 1] .

14- (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المطففين: 10] .

15- (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) [الهمزة: 1] .

16- (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ) [الماعون: 4] .

والخلاصة:

1- أن هذا اللفظ القرآني جاء في سبعة وعشرين موضعًا .

2- كل المواضع جاءت في سور مكية ما عدا ثلاثة مواضع جاءت في آية واحدة من سورة البقرة المدنية .

3- وردت المواضع بحسب تكرارها في السور على النحو الآتي :

- المرسلات : عشرة مواضع (10) .

(1) عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص 768 ، ص 769) .

- البقرة : ثلاثة مواضع (3) .
- المطففين : موضعان (2) .

وباقي المواضع جاءت مرة واحدة في كل سورة كما سبق ذكره .

4- كما أن أول موضع جاء (فويلٌ) في سورة البقرة وآخر موضع ورد في سورة الماعون .

5- وجاء الويل على وجه الرفع في جميع المواضع {ويلٌ} وهذا أجود وأشدّ وآكد.

6- **وجاء الويل مسنداً لكل من على النحو الآتي :**

أ- اليهود (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ) وجاء في حقهم ثلاث مرات دفعة واحدة وهم مستأهلون لهذا الوعيد الشديد .

ب- الكافرين في أربعة مواضع (للكافرين) – مرة واحدة – (للذين كفروا) – ثلاث مرات –.

ج- (للمشركين) موضع واحد .

د- (للمكذبين) اثنا عشر موضعاً منها عشرة مواضع دفعة كاملة في سورة المرسلات .

هـ- (الظالمين) ، (الذين ظلموا) في موضع واحد .

و- (القاسية قلوبهم) موضع واحد .

ز- (أفاك أثيم) موضع واحد .

ح- (المطففين) موضع واحد .

ط- (همزة لمزة) موضع واحد .

ي- (المصلين) موضع واحد .

إذن جاء الويل مسلطاً على جرائم خطيرة من الدرجة الأولى :

- الكفر ، الشرك ، الكذب ، الظلم ، التطفيف ، الهمز واللمز ، الإفك ، قسوة القلوب .
- التزوير والتحريف .

7- **وعند تصنيف ما سبق من المفردات فإنها لا تخرج عن :**

- الجانب العقدي من كفر وشرك وظلم وتحريف وكذب وإفك وقسوة قلب .
- الجانب السلوكي والأخلاقي من تطفيف وهمز ولمز .
- والثاني ثمرة للأول، فكلاهما على جانب كبير من الخطورة كما سيظهر بعون الله تعالى .

8- افتتحت سورتان اثنتان هما : المطففين والهمزة بـ (ويل) .

المطلب الثاني: (ويلٌ) في لغة العرب ولسانهم

هذه الكلمة بالرغم من أن حروفها قليلة سهلة ؛ إلا أنّ النطق بها يثير الفزع ، ويقُطّب الجبين ، ويستفز الحليم .

– وأكثر أهل اللغة أن (ويل) كلمة تقال عند وقوع في هلكةٍ أو بليةٍ لا يُترحم عليه معها[1] .

كما أنّ العديد من الباحثين تنبّه أن هذا اللفظ (ويل) جاء في القرآن الكريم لمن يستحق العذاب بجرمه ، فما جاء لفظ (ويل) إلا لأهل الجرائم ، نعوذ بالله من سخطه[2].

– والويل : حلول الشّر[3]

– وجاء بمعنى الفضيحة والبلية

– وويل : كلمة عذاب ، أو دعاء بالسوء ، كمن وقع في هلكة ، فقال : يا ويلي بمعنى يا هلاكي

– وتأتي ويل بمعنى : شدة العذاب

– وتأتي بمعنى الشتم ، واستعملت بمعنى التعجب

– وقولهم واويلتاه ، وافضيحتاه

– ويبدو أن بعض أهل اللسان والمعجم ذكر معانٍ أخرى منقولة من كتب التفسير أو الحديث أو نحو ذلك. فذكروا أيضًا أن (ويل):

– وادٍ في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا لو أرسلت فيه الجبال لماعت من حَرّه قبل أن يبلغ قعرها .

– بئر في جهنم

– باب في جهنم

وهذا ما سنتناوله بعون الله تعالى في المطلب الثالث ، ولكن وددت أن أسجّل هذه الملحوظة ، مما دخل على كتب اللسان من نقولات وروايات .

– وأيضًا ثمة إضافات لغوية مهمة نجدها عند المفسرين ، نثبت ما تيسر منها حتى تكتمل الصورة ما أمكن بعون الله .

– فالويل / على نحو قول فخر الدين ؛ كلمةٌ يقولها كل مكروب[4]

– وأوعب أبو حيان في حديثه (عن ويل) ما ملخصه :

– (ويلٌ) مصدر لا فعل له من لفظه ، ولم يأت من هذه المادة التي فاؤها واوٌ وعينها ياءٌ إلا : ويلٌ ، ويحٌ ، ويسٌ ، ويبٌ

– إذا أضيف (ويل) فالأحسن فيه النصب ، مثل قوله تعالى : (وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كذبا...) [طه :61]

– وإذا أفردته ، اختير الرفع (فويلٌ للذين...)

– ومن معاني الويل : الفضيحة ، والحسرة ، وشدة الشر ، والحُزن والهلكة

– وتويّل الرجل إذا دعا بالويل

(1) الأزهري ، تهذيب اللغة (ج192/5)

(2) المصدر السابق (ج192/5)

(3) المصدر السابق (ج192/5)

(4) الفخر الرازي ، التفسير الكبير (ج565/3)

– وهي كلمة تفجع ، أو تعجب (وَيْل أمِّه ، مِسْعَر حَرْبٍ)[1]

المطلب الثالث: (ويلٌ) عند المفسرين

وعند تتبع آراء المفسرين في بيان معنى (ويل) فلا تكاد أن تخرج عما يلي:[2]

– ما يسيل من صديد في أصل جهنم

– صهريج في جهنم يسيل فيه صديدهم

– وادٍ من صديد في جهنم

– وادٍ في جهنم ، يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا

– جبل في النار

– وادٍ يجري في فناء جهنم من صديد أهل النار

– وادٍ في جهنم بين جبلين يهوي فيه الهاوي أربعين خريفًا

– جبل من جبال النار

– صهريج في جهنم

– باب من أبواب جهنم

– مَسيل صديد أهل جهنم

وحاول ابن جرير أن يجمع بين الأقوال كعادته . فقال : ويل بمعنى العذاب ، والعذاب هو شرْبُ صديد أهل جهنم في أسفل الجحيم[3] وما يستدرك عليه أنه لم يستوعب الأقوال كلها ؛ كما أنه يُقرّ بصحة بعضها دون بعض .

وعلى هذا النحو سار فخر الدين . قال القاضي : " (ويل) تتضمن نهاية الوعيد والتهديد فهذا القدر لا شبهة فيه ، سواء كان الويل عبارة عن وادٍ في جهنم أو من العذاب العظيم[4] ".

وما ذكره الفخر صحيح ، ولكن نسبة هذه الأقوال على كثرتها أمر لا يستهان به ؛ فلا بد من التثبت والاستيثاق .

وهذا ما كان من أبي حيان . قال : "لو صح في تفسير (الويل) شيء عن رسول الله ﷺ لوجب المصير إليه ، وقد تكلمت العرب في نظمها ونثرها بلفظة الويل قبل أن يجيء القرآن ، ولم تطلقه على شيء من هذه التفاسير ، وإنما مدلوله ما فسّره أهل اللغة[5] ".

---

(1) أبو حيان ، البحر المحيط في التفسير (ج1/436)

(2) انظر الطبري ، جامع البيان في تأويل آي القرآن (ج2/76) (ج2/269)

وانظر ابن عطية ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب الغزيز (ص1701)

وانظر التفسير الكبير (ج3/565)

وانظر أبو السعود ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (ج1/120)

(3) الطبري ، جامع البيان (ج2/269)

(4) الفخر الرازي ، التفسير الكبير (ج1/565)

(5) أبو حيان البحر المحيط (ج1/466)

وانظر ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم (ج1/114-1115)

وهذا ما أكده الألوسي[1] بقوله : وإطلاقه أي الويل على ذلك يعني واد في جهنم ونحو ذلك من النقولات إما حقيقة شرعية ، وإما حقيقة لغوية ، لأن العرب تكلمت به في نظمها ونثرها قبل أن يجيء القرآن ولم تطلقه على ذلك .

ولا بأس أن نشير إلى بعض هذه النقولات ، فقد روي " أن ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره " قال الترمذي[2] : هذا حديث لا نعرفه إلا من طريق ابن لهيعة . وعقب لبن كثير[3] ههنا قال : لم ينفرد به ابن لهيعة ، ولكن الآفة بعده بهذا الإسناد مرفوعا ، وهو منكر . والله أعلم .

ونقل ابن كثير[4] رواية بأن " الويل جبل في النار " ثم عقب عليها بقوله : وهذا غريب أيضا جدا . وفي رواية أخرى نقلها ابن كثير أن " ويل واد في جهنم بين جبلين يهوي فيه الهاوي أربعين خريفا " ثم قال : وهذا حديث منكر .

والويل كلمة جامعة لكل عقوبة وحزنٍ وعذابٍ وخوفٍ[5] وما خلص إليه السعدي هو ما استقر في العقل والنفس ، غير أن تتبع الآيات والنصوص التي ذكرت (ويل) ستسعفنا كثيرًا في بيان صور مُفزعةٍ من العذاب اجتمعت في هذه الكلمة (ويل) ، مما سيظهر بعون الله تعالى.

المبحث الثاني: دراسة موضوعية في ضوء الدلالة والسياق

1- المطلب الأول: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) [البقرة: 79] .

والتعبير بالويل (فويلٌ) في هذا الموضع جاء في بدء الآية الكريمة، وذلك لعظم الجريمة بل الجرائم التي وقعوا فيها، فهم ارتكبوا ثلاث جرائم .

الأولى: (يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ) " بيان لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم لله سبحانه ، وفرق بين من كتب وبين من أمر، إذ المتولي للفعل أشدّ مواقعةً ممن لم يتوله ، وإن كان رأياً له [6] " " فهم يكتبون شيئًا لم يأتهم من رسلهم بل يصنعونه ويبتكرونه [7] " ولا يغيب عن البال أن المقصود هنا هم صنفٌ من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال من الأحبار والرؤساء [8] .

الثانية: (ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) وهذه جريمة أقبح وأفدح أشار إليها حرف (ثم) الذي أفاد الرتبة ؛ فهم لم يكتفوا بالتحريف والتزييف بل نسبوا ما اقترفته أيديهم من الكذب إلى الله تعالى ؟!

---

(1) انظر الألوسي ، (ج302/1)

(2) انظر سنن الترمذي ، برقم (3164)

(3) انظر ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (ج312/1)

(4) انظر المصدر السابق ، (ج312/1)

(5) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص960)

(6) ابن عطية ، المحرر الوجيز ، (ج170/1)

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير ، (ج557/1)

(8) انظر ابن عطية ، المحرر الوجيز ، (ج170/1) وانظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، (ج114/1)

وقد كان ابن عاشور دراكاً للمحة ههنا فقال : " و (ثم) للترتيب الرتبي لأنّ هذا القول أدخل في استحقاقهم القول ممن كتبوا الكتاب بأيديهم إذ هو المقصود [1] " .

الثالثة: (لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) والثمن عرض الدنيا ، " وقيل الرشا والمآكل التي كانت لهم [2] " وهذه جريمة لا تقل عن سابقتها إذ رسخت انحرافًا خطيرًا وسلوكًا لئيمًا في مستقبل الأجيال القادمة ، فإن قيل : لم ذكر (يكسبون) بلفظ المستقبل و (كتبت) بلفظ الماضي؟ قيل وهذا ما التفت إليه الراغب فيما نقله عنه القاسمي في المحاسن : قال بلفظ الماضي؟ قيل : تبنيها على ما قال النبي ﷺ : "من سنّ سنةً سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة" [3].

" فشبه بالآية أن ما أصلوه وأثبتوه من التأويلات الفاسدة ، التي يعتمدها الجهلة ، هو اكتساب وزر يكتسبونه حالًا فحالًا [4] " .

وقد أشار ابن عاشور إلى جملة من الأمور ههنا يحسن ذكرها :

1- الثمن المقصود هو إرضاء العامة بما غيروا لهم من الأحكام بما يتوافق مع أهوائهم وانتحال العلم لأنفسهم .

2- فوضعوا قصصاً يدلس بها بعضهم على بعض .

3- وكل ذلك فعلوه طمعاً في الرئاسة الكاذبة .

فأشاعوا ما حرفوه أو أضافوه وابتدعوه بين العامة ونسبوه إلى الله سبحانه، ليظهروا في صور العلماء بين العامة، وبين من لا يميز بين الشحم والورم [5] .

وهكذا فإنهم ظلموا عامة الناس من جهتين [6] :

1- من جهة تلبيس دينهم عليهم .

2- من جهة أخذ أموالهم بغير حق، بل بإبطال الباطل، وذلك أعظم ممن يأخذها سرقة أو غصبًا، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين ، فقال :

- (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ) من التحريف والباطل .

- (وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) من الأموال .

2- المطلب الثاني: (اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) [إبراهيم: 2] .

جاء الوعيد بالويل والعذاب الشديد للكافرين ، ولكن من هم؟ ما صفاتهم ؟فجاءت الآية التالية : (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) .

فهم ارتكبوا حماقات عدة ، وذكر سبحانه من صفاتهم ثلاثة أنواع [7] :

---

(1) المصدر السابق (ج557/1)

(2) ابن عطية ، المحرر الوجيز ، (ج170/1)

(3) مسلم ، المسند الصحيح ، رقم (1017) ، والترمذي ، رقم (2675)

(4) القاسمي ، محاسن التأويل (ج376/1)

(5) انظر ابن عاشور ، التحرير والتنوير (ج259/1)

(6) انظر السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص48)

(7) انظر الفخر الرازي التفسير الكبير (ج61/7)

1- (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) .

فالتعبير بـ (يستحبون) يدل على كونهم في نهاية المحبة للحياة الدنيوية ، والغفلة عن الحياة الأخروية ، ومن كان كذلك كان في نهاية الصفات المذمومة [1] .

ثم إن التعبير بـ (يستحبون) تضمن معنى الإيثار كذلك، لأن الاستحباب للدنيا وحده لا يكون مذمومًا إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة [2].

2- (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) قال الفخر الرازي : واعلم أن من كان موصوفًا باستحباب الدنيا فهو ضال ، ومن منع الغير من الوصول إلى سبيل الله ودينه فهو مضل ، فالمرتبة الأولى إشارة إلى كونهم ضالين ، وهذه المرتبة الثانية وهي كونهم صادين عن سبيل الله إشارة إلى كونهم مضلين .

3- (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) ويبدع الفخر الرازي في استخلاص ما في الآية من كنوز ، فيقول : ومن تلك الصفات قوله سبحانه (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) لأن الإضلال على مرتبتين :

الأولى: أن يسعى في صد الغير ومنعه من سلوك الصراط المستقيم .

الثانية: أن يجتهد في إلقاء الشكوك والشبهات على المذهب الحق، بكل ما أوتي من الحيل ، وهذا هو النهاية في الضلال والإضلال [3] .

وهذا لعمر الحق أقصى مراتب الضلال فجاء الوعيد في مكانه حذو القذة بالقذة (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) .

وإن ما اتصف به هؤلاء الكفار وما وقعوا فيه من ظلمات الكفر والضلال والإضلال هو عينه ، ما سبقهم به أئمة الضلال من أحبار اليهود وعلمائهم فيما تحدثت عنه سورة البقرة من قبل ، فجاء الوعيد بالويل بحسبه جزاء وفاقا لأفعالهم الشنيعة من صد وصدود وضلال وإضلال .

3- المطلب الثالث: (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [مريم: 36، 37] .

وكأني بهذا الموضع الكريم يمثل نموذجًا اجتمع عليه أئمة الضلال من اليهود النصارى والكفار ، فبعد أن بين سبحانه حال عيسى – عليه السلام– الذي لا يشك فيه ولا يمترى ، أخبر أن الأحزاب، أي ؛ فرق الضلال من اليهود والنصارى وغيرهم ، على اختلاف طبقاتهم اختلفوا في – عيسى عليه السلام – ، فمن غال فيه وجاف ، فوقعوا بين الإفراط والتفريط فمنهم من قال : (إنه الله) .

1- وهذا قوله تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) .

2- ومنهم من قال هو ثالث ثلاثة وهذا قوله تعالى (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) .

(1) المصدر السابق (ج61/7)

(2) الفخر الرازي التفسير الكبير (ج61/7)

(3) انظر المصدر السابق (ج61/7)

ومنهم من افترى عليه بأنه ولد من بغيّ كاليهود وهؤلاء جميعًا مستحقون للوعيد الشديد (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) بالله ورسله وكتبه ويدخل فيهم اليهود والنصارى القائلون عن عيسى قول الكفر (مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) مشهد يوم القيامة ، إذ يشهده الأولون والآخرون وعندئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون ويكتمون ويحرفون [1] .

وتلتقي هذه الآية في سياقها أيضاً مع سابقتيها في الإشارة إلى الجريمة النكراء التي يرتكبها هؤلاء الضالون المضلون فيأتي قوله تعالى بعد ذلك : (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [مريم: 38] .

فهم بين معاندٍ ضال على بصيرة ، وبين متمكن من معرفة الحق والصواب لكنه راضٍ بضلاله ، غير ساعٍ في معرفة الحق من الباطل [2] .

ويقف بنا السعدي هنا على لفتة في غاية الدقة يقول : وتأمل كيف قال سبحانه: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا...) بعد قول : (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) ولم يقل "فويل لهم" ليعود الضمير إلى الأحزاب، لأنّ من الأحزاب المختلفين ، طائفة وافقت الحق ، فقالت في عيسى : "إنه عبدالله ورسوله" فهم مؤمنون ، غير داخلين في هذا الوعيد [3].

ولاحظوا ما جاء في سياق الموضع السابق من سورة إبراهيم : (...وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) .

وما في هذا الموضع من سورة مريم :

- (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) .
- (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .
- في حق الكافرين – من عذاب شديد .
- في حق تفريق الأحزاب – من مشهد يوم عظيم .

وهم في السياق الأول في ضلال بعيد ، وفي السياق الثاني في ضلال مبين .

وهكذا ينضم فريق جديد إلى قائمة المستأهلين والمستحقين للويل والهلاك .

فبعد أن ذكر الموضعان السابقان من الآيات الكريمة:

1- الضالين .

2- المضلين .

3- الغافلين عن الدار الآخرة .

يأتي الفريق الرابع وهم :

4- من قصرت هممهم عن معرفة الحق وتحري الصواب.

4- المطلب الرابع (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) [الأنبياء: 18] .

---

(1) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص574)

(2) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص574)

(3) انظر / المصدر السابق (ص574)

وأول وقفة هنا أن السياق بجمع بين (ولكم الويل) وبين (قالوا يا ويلنا) ، وتعلق قولهم (يا ويلنا) بما قد وقع عليهم من العذاب ، فندموا ولات حين مندم ؛ " إذ إنهم لما يأسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب قالوا (يا ويلنا) هلاكنا (إنا كنا ظالمين) أي مستوجبين للعذاب ، وهذا اعتراف منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب وندم عليه ولكن لم ينفعهم ذلك [1] " .

وثمة أمر آخر يلفت الانتباه أن هذا هو الموضع الوحيد الذي جاء بهذه الصيغة دون غيرها (ولكم الويل) ؟

وظاهر الأمر أن هذا وعيد لقريش بأن لهم مثل ما لأولئك من العذاب والعقاب ، وهذا لأجل تطاولهم ووصفهم له سبحانه بما لا يليق من نسبة الولد ونحو ذلك .

وكعادته أبدع صاحب الظلال [2] في إظهار النسج المحكم في الآيات الكريمة والسياق الحكيم، فعلامَ هذا الويل بكل ما فيه من ترهيب وتحذير؟ قال ما خلاصته :

- لقد أبى المشركون إلا أن يستقبلوا القرآن باللهو واللعب والغفلة.
- وغفلوا أن الله سبحانه خلق هذا الكون لحكمة ، لا لعبًا ولا لهوًا لا جزافًا ولا هوىً ، وبالحق الذي خلق به السماء والأرض أرسل الرسل وأنزل الكتب وفرض الفرائض وشرع التكاليف .
- وتعالى الله سبحانه عما يقولون ، فلو أراد سبحانه أن يتخذ لهوًا لما كان هذا اللهو حادثًا ولا متعلقًا بحادث كالسماء والأرض ، وإنما يكون أزليًا باقيًا .
- وبالتالي جاء حرف الأحزاب (بل) للإضراب عن الحديث في موضوع اللهو والعدول عنه إلى الحديث عن غلبة الحق وزهوق الباطل .
- وكأنما الحق قذيفة في يد القدرة الإلهية، تقذف به على الباطل ، فيشق دماغه فإذا هو زاهق هالك ذاهب .
- فالذين يتقولون على القرآن الكريم وعلى الرسول ﷺ ويصفونه بالسحر والشعر والافتراء وهو الحق الغالب الدافع للباطل، مستأهلون للوعيد والتهديد مغبة ما يقولون ، تعالى الله عما يقولون (ولكن الويل مما تصفون) .
- وهكذا يأتي الوعيد الشديد بالويل ههنا (ولكم الويل) إزاء تجاوز خطير وشر مستطير ، بالتطاول على الخالق المبدع الحكيم سبحانه ، ونسبة العبث واللهو إليه حاشا وكلا وما يتبع ذلك من النيل من القرآن الكريم وصاحب الرسالة .

" ليس هذا فحسب وإنما نسبوا إليه سبحانه اتخاذ الولد والصاحبة ، والأنداد والشركاء ولن يرجع عليهم هذا إلا بالويل والندامة والخيبة والحرمان " [3] " .

المطلب الخامس: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) [ص: 27] .

ونلحظ من أول الأمر هذه المتوالية القرآنية البديعة من الحديث عن خلق السماوات والأرض تتصل بكل من :

1- الموضع الثاني من سورة إبراهيم (اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) [إبراهيم: 2] .

2- الموضع الرابع من سورة الأنبياء وفي سياقه (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) [الأنبياء: 16-18].

---

(1) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (ج59/5)

(2) انظر ، سيد قطب ، في ظلال القرآن (ج2372/4-2373)

(3) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن (ص606)

ثم يأتي هذا الموضع الكريم (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) [ص: 27] .

وتتراءى صورة إيجابية في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران: 191] .

والجديد ههنا مما ينبغي أن نقف عنده:

1- (وما بينهما) لم تذكر في الموضع الثاني من سورة إبراهيم بينما ذكرت في الموضع الرابع من سورة الأنبياء والموضع الخامس من سورة (ص) .

2- في الموضع الثاني من سورة إبراهيم نفي اللعب والعبث (لاعبين) حاشا وكلا وفي سورة (ص) نفي (باطلًا) .

3- والجديد في سورة (ص) كذلك مجيء الآية عقب الحديث عن موقف من مواقف داود – عليه السلام – ، وكونه خليفة الله في الأرض .

4- والجديد أيضاً (ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) .

5- ولئن كان الوعيد في المواضع السابقة مبهمًا ، **فقد جاء هنا واضحًا :**

1- الموضع الأول من سورة البقرة : (وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) .

2- الموضع الثاني من سورة إبراهيم : (وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) .

3- الموضع الثالث من سورة مريم : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) .

4- الموضع الرابع من سورة الأنبياء : (وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) .

5- الموضع الخامس من سورة (ص) : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) .

ولقد أسعفنا ابن عطية بنظره الثاقب في فهم هذا الموضع من سورة (ص) والسياق الذي جاء به ، فقال : وقوله عز وجل (إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) إلى قوله : (وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) اعتراض بين الكلمتين من أمر داود وسليمان ، وهو خطاب لمحمد ﷺ وعظة لأمته ووعيد للكفرة به فأخبر سبحانه وتعالى أن الذين كفروا يظنون أن خلق السماء والأرض وما بينهما إنما هو باطل لا معنى له ، وأن الأمر ليس يؤول إلى ثواب ولا إلى عقاب .

وأخبر تعالى عن كذب ظنهم وتوعدهم بالنار ، ثم وقف تعالى على الفرق عنده بين المؤمنين العاملين بالصالحات ، وبين المفسدين الكفرة ، وبين المتقين والفجار وفي هذا التوقيف حض على الإيمان ووعيد للكفرة ، ثم أحال في طلب الإيمان والتقوى على كتابه العزيز بقوله : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ) وفي هذه الآيات اقتضاب وإيجار بديع حسب إعجاز القرآن العزيز ووصفه بالبركة لأن أجمعها فيه ، ولأنه يورث الجنة وينقذ من النار [1] .

وعلى كل حال فإن الباطل نقيض الحق ، ولا يعود لصاحبه بنفع دنيوي أو أخروي [2] وهو ظن الذين كفروا مما استحقوا عليه وبه الويل والهلاك ، وما أجمل أن نجمع بين النصين ههنا من الموضع السابق واللاحق .

(1) انظر ابن عطية ، المحرر الوجيز (ج502/4)

(2) انظر / الراغب ، مفردات ألفاظ القرآن الكريم (ص129)

- (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ) .
- (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا) .

6- المطلب السادس: (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [الزمر: 22] .

والطريف أن الموضع السابق من سورة (ص) تبعه الحديث عن القرآن الكريم (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) .

وفي هذا الموضع كذلك يأتي الحديث عن أحسن الحديث القرآن الكريم ويبرز صورة مدهشة للتدبر وقد أشارت إليه آية سورة (ص) من قبل (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا) .

ولئن أشار الموضع السابق من سورة (ص) إلى صارف خطير من صوارف هدايتهم وهو ظنهم الباطل فإن هذا الموضع من سورة الزمر أشار إلى صارف آخر من صوارف هدايتهم وهو قسوة قلوبهم (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ الله) ، وأشار الموضع الأسبق من سورة الأنبياء إلى سوء تصورهم وتطاولهم على الذات العلية بنسبة العبث واللهو واللعب والصاحبة والولد تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا .

ولو أردنا أن نستخلص تلك الصوارف ابتداءً من الموضع الأول لخرجنا بتشخيص دقيق يفسر نكوصهم عن الحق .

1- (لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) لتخلص لهم مكانتهم الدينية والدنيوية وما يترتب عليها من مكاسب مادية ، واستغفال للعامة من الخلق.

2- (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) سوء تصورهم من الانشغال بالعاجلة عن الآجلة والانهماك في شهوات الدنيا وملذاتها.

3- الخلاف والجدل العقيم والتعصب الأعمى وضعف الهمم وقصور العزائم عن بلوغ الحق .

4- عقائدهم المنحرفة بنسبة العبث واللعب واللهو والصاحبة والولد لله سبحانه .

تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا .

5- ظنهم السقيم بعدم البعث والنشور وبطلان الثواب والعقاب .

6- قسوة قلوبهم عن الذكر والفكر والتدبر والتذكر لأحسن الحديث القرآن الكريم .

إن كل صارف مما ذكر استحق الويل برأسه، فكيف وقد اجتمع عندهم من الموبقات والجرائر ما الله به عليم وعليه مقتدر

وهنا أمر يستدعي أن نقف عنده فيما يتصل بنسق هذه الآية مع ما سبقها مما نحن بصدد دراسته ، وهو الحكم على من استنكف عن الهداية بالضلال .

ففي الموضع الثاني من سورة إبراهيم يأتي قوله تعالى في نفس السياق (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) [إبراهيم: 3] .

وفي الموضع الثالث وفي السياق ذاته يأتي قوله سبحانه : (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [مريم: 38] .

وفي الموضع الخامس يأتي قوله تعالى في السباق وفي ذات السياق (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) [ص: 26] .

وهنا من المهم أن نضيف صارفًا مهمًا هو الهوى المتبع والمطاع فهو سبب من أسباب الضلال عن الحق والحيدة عن التوحيد والغفلة والنسيان لما ينتظر من الحساب والعقاب .

إذن هم أي الموعودون بالويل في :

- في ضلال بعيد .
- في ضلال مبين .
- وقد استبد بهم الهوى فاستحقوا العذاب الشديد .

وهنا أيضاً في قوله سبحانه : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [الزمر: 22] ، **ثمة صنفان وسببان أو نتيجتان :**

الأول : من شرح الله صدره – فهو على نور من ربه .

الثاني : من حرم شرح صدره وهم أصحاب القلوب القاسية ، (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

ولعل ابن عاشور أدرك اللمحة فقال :

- وشرح الله الصدر للإسلام استعارة لقبول الحق (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) [الأنعام: 125] .
- (فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) استعارة تمثيلة أو تبعية للتمكن من النور، وهذا النور نعمة ربانية محضة (من ربه) فهو نور كامل لا تخالطه ظلمة [(1)] .
- أما الصنف الضال ممن لم ينل رحمة الله فلم يشرح صدره ، لما في قلوبهم من قساوة ، فلا تسلك دعوة الخير إلى قلوبهم ، وأجمل سوء حالهم بما تدل عليه كلمة (ويل) من بلوغهم أقصى غايات الشقاوة والتعاسة ، فقسوة القلب : مستعارة لقلة تأثر العقل بما يُسدي إلى صاحبه من المواعظ ونحوها [(2)] .

ولعل هذا أيضاً مما أشار إليه الزمخشري من قبل [(3)] وزاده بياناً ابن عاشور من بعد إذ عدّ (من) من قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) تحمل معنى التعليل ، فتكون قسوة القلوب حصلت فيهم من أجل ذكر الله والمراد بذكر الله القرآن وإضافته إلى الله زيادة تشريف له [(4)] .

وهكذا فإن هذا الموضع الكريم ذكر الصنفين ، ممن شرح الله صدروهم ، فاقشعرت جلودهم ولانت إلى ذكر الله تعالى ، والصنف الثاني ممن قست قلوبهم ونكصوا عن الحق واستحقوا الويل والثبور .

وثمة مقابلتان أخريتان :

الأولى : (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) .

---

(1) انظر ابن عاشور ، التحرير والتنوير (ج64/24)

(2) انظر المصدر السابق (ج64/24)

(3) انظر الزمخشري ،الكشاف (ج122/4)

(4) انظر أبن عاشور ، التحرير والتنوير (ج64/24)

والثانية: (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) ، (ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) .

7- **المطلب السابع:** (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ) [فصلت: 6]

ومن أول الأمر نلحظ ما يلي:

- كان الويل مسلطًا في المواضع السابقة على أئمة الضلال من اليهود والنصارى والكافرين والقاسية قلوبهم ، وجاء هذا الموضع بالتصريح بذكر المشركين (وويل للمشركين) .
- ثم جاء وصف هؤلاء المشركين في الآية الثانية (وويل للمشركين) .

1- (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) .

2- (وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) .

- ولا يخفي ما جاء في السباق كذلك من الحديث عن القرآن الكريم من بداية السورة (حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .
- فالحديث متصل مع الموضع السابق من سورة الزمر فيمن قست قلوبهم من ذكر الله ، وهنا في الموضع الجديد وسياقه من سورة فصلت مزيد بيان للمرض المتمكن من قلوبهم .
- فقلوبهم باعترافهم في أكنة .
- وفي آذانهم وقر .
- و بينهم وبين رسولهم حجاب .

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ) [فصلت: 5-6] .

وهنا أيضاً عناصر جديدة مهمة بين يدي الآيات :

- فالرسول محمد ﷺ بشر مثلهم ولكنه يوحى إليه من عند الله .
- ورسالة الوحي التوحيد (إنما إلهكم إله واحد) .
- فاستقيموا لله سبحانه واستغفروه .

إذن نحن أمام طراز جديد من أئمة الضلال من المشركين والمستنكفين عن قول الحق ، وهذا ظاهر ابتداءً من قوله تعالى (فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) .

وهذه فئة ذات صدود وإعراض من زوايا جديدة .

- فهم يعرضون عن سبق إصرار وتصميم .
- وهم لا يقبلون مجرد السماع .
- بل يتحامون أن يعرضوا قلوبهم لتأثير القرآن الكريم [1] .
- ويحضون الجماهير على عدم السماع (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) [فصلت: 26] .

(1) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن (ج3108/5)

- وأحياناً كانوا يسمعون وكأنهم لا يسمعون فكأنهم هم لا يسمعون .
- وزعموا أن قلوبهم في أغطية تمنع وصول أثر القرآن الكريم .
- وآذانهم صماء عن دعوتك .
- وثمة حجاب بينهم وبين صاحب الرسالة محمد ﷺ .

وهذا كله حتى تيأس من دعوتهم، وتبتعد عنهم

وهذه رسالة جديدة مما ينبغي أن يتجمل به صاحب الدعوة من الصبر والجلد ، وأن يستمر في دعوته دون تردد لما يجده منهم من صدود ، وأن لا يكل ولا يمل من دعوتهم بل **يدعوهم إلى :**

1- توحيد الله سبحانه (إنما إلهكم إله واحد) .

2- والاستقامة والثبات على طريق الحق .

ويحذرهم مغبة الشرك وما ينتظرهم من الويل والثبور والهلاك (وويل للمشركين) .

هؤلاء المشركون المصرون على الشرك وأن لا يزكوا أنفسهم وأن لا يطهروا أنفسهم من أدرانه ولوثاته ، وأن يخلصوا أنفسهم من الأثرة والشح والبخل والإمساك عن الشفقة عن الخلق وإعانتهم .

وللرازي تعقيب مهم ههنا مفاده : [1]

أن السعادة منوطة بأمرين :

1- التعظيم لأمر الله تعالى .

2- الشفقة على خلق الله تعالى .

وبالتالي فإنه سبحانه وبحسب الآية (وويل للمشركين) (الذين لا يؤتون الزكاة) أثبت الويل لمن كان موصوفاً **بصفاتٍ ثلاثة :**

أولها: الشرك وهو أخس المراتب وهو ضد التوحيد وهو أعلى المراتب .

ثانيهما: الشفقة والإحسان إلى الخلق وهو من أشرف الأعمال من خلال الزكاة ونحوها .

ويقابله الامتناع عن الزكاة والإحسان إلى الخلق وهو من أخس الأعمال .

ثالثها: كونه منكراً للقيامة مستغرقاً في طلب الدنيا ولذاتها (وهم بالآخرة هم كافرون) .

ولا أريد أن أحرم القارئ الكريم من الوقوف على إبداع الفخر الرازي مجددًا في هذا المقام إذ يقول :

فلا زيادة على المراتب الثلاثة ، فالإنسان له ثلاثة أيام ، الأمس واليوم والغد .

- أما معرفة كيف كانت أحوال الأمس في الأزل فمعرفة الله سبحانه الخالق لهذا العالم .
- وأما معرفة اليوم الحاضر ، فهو الإحسان إلى أهل العالم بقدر الطاقة .
- وأما معرفة المستقبل فبالإقرار بالبعث والقيامة .

(1) انظر الفخر الرازي، التفسير الكبير (ج542/9)

فإذا كان الإنسان على ضد الحق في هذه الأمور الثلاثة كان في نهاية الجهل والضلال فلهذا حكم الله عليه بالويل ، فقال سبحانه (وويل للمشركين) ، وهذا ترتيب في غاية الحسن [1] .

8- المطلب الثامن: (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ) [الزخرف: 15] .

ولأول وهلة تجد هذا الموضع الكريم يتفق في مطلعه مع الموضع الثالث من سورة مريم (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[مريم: 37] .

لكن الجديد ههنا من موضع سورة فصلت :

- (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) .
- (مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

إذن ثمة سؤالان:

الأول: ما وجه تخصيص كل آية منهما بما ورد فيها (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) .

الثاني: وما الوجه كذلك بما ورد في الأولى (مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وفي الثانية : (مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) .

والجواب عن السؤال الأول من وجوه [2] :

- بدأ بتسجيل الكفر عليهم ، لأنه أعظم من كل خطيئة ، ولا ينفع معه شيء من أعمال البرّ ، فهو أعظم من الظلم ، وقد يوصف الكافر بالظلم ، قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا) [النساء: 168] .

- وجاء قوله سبحانه : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) بعد قوله تعالى من سورة مريم وفي نفس السياق (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [مريم: 34-35].

وما أشنع اختلاف الأحزاب في نبي الله عيسى - عليه السلام - ، فقال بعضهم : هو الله ، وبعضهم : ابن الله ، وبعضهم : ثالث ثلاثة ، فوسمهم بالكفر الذي هو ضابط أقوالهم وأم مرتكباتهم .

ثم ذكرهم في آية الزخرف بصفتهم من الظلم اللازم لكفرهم ، وليتناسب بذلك مع ما تقدم من وهم من اعتمد غير الله سبحانه ، فقرن بمعتمده في العذاب وهو المقول فيه (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) [الزخرف: 36] .

وقيل في متخذه : (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) [الزخرف: 39] .

والظلم هنا ظلم الكفر وحال من بعد - عيسى عليه السلام - ، فوسموا بالظلم كوسم من تقدم فقيل : (فويل للذين ظلموا) وظلم هؤلاء كفر كحال من تقدم [3] .

أما بالنسبة للسؤال الثاني ، (من مشهد يوم عظيم) ؛ فإنه سبحانه أخبر باستحقاق الويل لهم لكفرهم من شهود ذلك اليوم الفاضح لهم على رؤوس الأشهاد ، وفيه قال سبحانه : (هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) [هود: 18] .

---

(1) انظر المصدر السابق (ج542/9)

(2) انظر ابن الزبير، ملاك التأويل (ج796/2)

(3) المصدر السابق (ج796/2-797)

أما قوله سبحانه في آية الزخرف (من عذاب أليم) .

فذكر العذاب المعقب به ذلك المشهد ، ووصف اليوم بالإيلام وإن كان المؤلم هو العذاب مبالغة في شدة الإيلام من عذاب ذلك اليوم .

وهذا العذاب ثان عن قيامهم في ذلك اليوم المشهود وسوء حالهم فيه وجاء ذلك على الترتيب الذي استقرّ عليه الكتاب العزيز، فذكر في المتقدم من الإثنين المتقدم وجوداً من حالهم الأخروي، وفي الآية الثانية ترتيب ما هو ثان من ذلك وجاء كل على ما يجب ويناسب [1].

وهكذا تجتمع صفات القبح عند أئمة الضلال والإضلال من كل وجه من اليهود والنصارى والكفار والمشركين والظالمين، وتحيط بهم كذلك ويلات العذاب من كل وجه.

9- المطلب التاسع : (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) [الجاثية: 7] .

والملحوظة الأولى : أن هذا الموضع الكريم هو الموضع الثاني بعد الموضع الأول من سورة البقرة والذي صُدّر وابتدأ بهذا اللفظ المفزع (ويلٌ) وإن كان الموضع الأول جاء متصلاً بحرف العطف الفاء (فويل) وليس كذلك الموضع المذكورر من آية سورة الجاثية فيما جاء اللفظ الكريم متأخراً في الآيات من الموضع الثاني إلى الموضع الثامن .

أما الملحوظة الثانية : أن المواضع التي تلت موضع آية سورة الجاثية جاءت في مقدمة الآية اي من الموضع العاشر إلى الموضع السادس عشر وهو الأخير بحسب الدراسة .

ويظهر أننا في هذا الموضع الكريم أمام صنف جديد من الضالين المضلين وسمه القرآن الكريم بصفة قيمية وعلةٍ مستحكمة فهو (أفاك) وهو (أثيم) .

والإفك شر كله ، أرأيت إلى قوله تعالى : (قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) [التوبة: 30] .

وقوله تعالى حاكياً عن جريمة نكراء بحق السيدة عائشة -رضي الله عنها- : (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [النور: 11]

فالإفك كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه ، إن في مجال الاعتقاد فيذهبون من الحق إلى الباطل ، أو في مجال المقال من الصدق إلى الكذب [2] ، أو في مجال الأفعال من الجميل إلى القبيح .

وجمع ابن منظور من معاني مادة (أفك) ، فالإفك الكذب والأفاك الكذّاب، والأفيكة الكذبة العظيمة حتى لحقتها لام الاستغاثة فقيل يا للأفيكة، والأفاك كذلك الذي يأفك الناس أي يصدهم عن الحق بباطله [3] .

ولك أن تتخيل تلك الصور لمادة (أفك) من (المؤتفكات) وهي مدائن لوط عليه السلام سميت بذلك لا لانقلابها بالخسف (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى) [النجم: 53] ، وأرض مأفوكة لم يصبها المطر فأمحلت، وانتفكت الأرض : احترقت من الجدب [4] .

---

(1) انظر ابن الزبير، ملاك التأويل (ج2/796 – 797)

(2) انظر الراغب، مفردات ألفاظ القرآن (ص79)

(3) انظر، ابن منظور ، لسان العرب (ج1/166-167)

(4) انظر المصدر السابق (ج1/166-167)

وإنما أطلت النفس قليلاً في بيان معنى الإفك والأفاك لما تعلق بها من الويل والثبور والهلاك.

أما الأثيم فهو الكذاب وهو الفاجر وهو من وقع حتى أذنيه في وحل المعصية والذنب[1].

وعاد ابن فارس إلى أصل الكلمة فقال (أثيم) الهمزة والثاء والميم تدل على أصل واحد، وهو البطء والتأخر، يقال ناقة آثمة أي متأخرة، والإثم مشتق من ذلك، لأن ذا الإثم بطيء عن الخير متأخر عنه، وأثم فلان: وقع في الإثم وذكر تسمية الخمر بالإثم لأنها توقع صاحبها في الإثم [2].

فإذا ما استحضرنا هذه المعاني الخطيرة وذهبنا إلى سياق الآية الكريمة وما لحق الأفاك الأثيم من الويل عرفنا المزيد عن صفاته القبيحة ومناقبه الخسيسة (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) .

من هو ؟ ما صفاته ؟ بم استحق الويل والثبور ؟ والجواب :

1- (يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ) كيف يسمعها (ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا) .

2- (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) .

وقد أبدع الشيخ السعدي ههنا قال بعد فذلكة مختصرة لمقدمة سورة الجاثية، ثم قسم تعالى الناس، بالنسبة للانتفاع بآياته وعدمه، **إلى قسمين :**

- قسم يستدلون بها ويتفكرون وينتفعون ويرتفعون وهم المؤمنون الموقنون .
- وقسم يسمع آيات الله بما تقوم به عليه الحجة ولكنه يعرض ويستكبر، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه .
- وأنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً، فتوعده الله بالويل فقال : (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) أي كذاب في مقاله، أثيم في أفعاله وأخبر

بأن له عذابًا أليمًا وأن (مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ) تكفي في عقوبتهم البليغة [3] .

ولئن ذكر سابقًا من أئمة الضلال من كفر ومن ظلم ومن أشرك ومن ضل ومن أضلَّ ومن حرّف ومن زور ومن بقي رهيناً لتقليد فاسد وعقيدةٍ منحرفة ومن قسا قلبه ومن غفل وانهمك في الدنيا وملذاتها، ومن أعرض ونكص ، فإن الفريق الجديد كثير الآثام والجرائم على نحو ما قال صاحب المقتطف من عيون التفاسير [4] يقلب الحقائق ويحترف الإفك والكذب ويمتهن آيات التنزيل ليجعل منها لهواً يشتري به ثمناً قليلاً فاستحق الويل من كل وجه والعذاب الأليم من كل جانب .

الموضع العاشر: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) [الذاريات: 60] .

والملحوظة الأولى: أن هذا الموضع الكريم من سورة الذاريات جاء في آخر السورة ، وهذا لم يكن لأي موضع من المواضع السابقة ولا اللاحقة .

والملحوظة الأخرى أنه اشترك بارتباطه (ويل) بحرف (الفاء) في مواضع دون غيرها .

---

(1) انظر المصدر السابق (ج74/1)

(2) انظر ، ابن فارس ، مقاييس اللغة لابن فارس (ج60/1)

(3) انظر ، المنصوري ،المقتطف من عيون التفاسير (ج597/4)

(4) انظر المصدر السابق (ج597/4)

فقد اشترك مع الموضع الأول من سورة البقرة (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) [البقرة: 79] .

واشترك كذلك مع الموضع الثالث من سورة مريم (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وفيمن ينالهم الويل (الذين كفروا) .

غير أن سورة مريم (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) .

وفي سورة الذاريات (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) .

واشتركت كذلك مع سورة (ص) (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النار) أيضًا كسابقتها من سورة مريم .

ومع سورة الزمر (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

ومع سورة الزخرف (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) .

وسيلحقها كذلك من سورة الطور (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) .

ومن سورة الماعون (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ) .

والسياق في غاية الاتصال ، فإن الحقيقة التي ينبغي أن يدفع بها كل الفرقاء ممن ذكروا سابقًا وغيرهم من الخلق ، أن الله سبحانه خلقهم لعبادته ، (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) غير أن الجديد ههنا أن بعض المشركين كانوا يعبدون الجن ، وهذه جريمة جديدة تضاف إلى ما سبقها من جرائم الكفر والشرك (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) [الأنعام: 100] .

ولهذا والله أعلم بالصواب اجتمعت الصفتان ههنا :

1- (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ) .

2- (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) .

وهذا ما تشير إليه وظيفة حرف (الفاء) (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) فهو تفريعٌ على جملة (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ، والمعنى : إذا لم يُفرد المشركون بالعبادة فإن لهم ذنوبًا مثل ذنوب أصحابهم من الأمم السالفة [1].

وعلى هذا فإن المقصود بـ (فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) ، من أشرك من العرب ،والظلم الشرك بالله [2] .

وجاء دور حرف الفاء ههنا محكماً للاتصال كذلك (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) فالفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أن لهم عذاباً عظيمًا ، كما أن الفاء التي قبلها لترتيب النهي من الاستعجال على ذلك [3] .

11- المطلب العاشر: (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [الطور: 11] .

ولئن كانت آية سورة الجاثية توعدت الأفاك، الذي بلغ من الكذب الغاية القصوى، فإن الموضع الجديد هنا من سورة الطور صرح بذكر المكذبين (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) ثم تكرر تسليط الويل عليهم في عشرة مواضع من سورة المرسلات ، فاجتمع عليهم أحد

(1) انظر ابن عاشور ، التحرير والتنوير (ج48/27)

(2) انظر المصدر السابق (ج48/27)

(3) انظر / الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (ج24/14)

عشر موضعًا من الوعيد والتهديد بالويل ، وكإشارة في الطريق فإن رقم الآية من سورة الطور (11) وذكر بعدها (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) من سورة المرسلات عشرة مواضع ثم ذكر موضع واحد أخير في سورة المطففين (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المطففين: 10] .

وثمة ملحوظة أخرى، مفادها ذكر اللفظ الكريم (يوم) (يومئذ) .

- الموضع الثالث: (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [مريم: 37] .
- الموضع الثامن: (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) [الزخرف: 65] .
- الموضع العاشر: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) [الذاريات: 60] .
- الموضع الحادي عشر: (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [الطور: 11] .
- الموضع الثاني عشر: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المرسلات: 15] .
- الموضع الثالث عشر: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المرسلات: 19] .
- الموضع الرابع عشر: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المرسلات: 24] .
- الموضع الخامس عشر: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المرسلات: 28] .
- الموضع السادس عشر: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المرسلات: 34] .
- الموضع السابع عشر: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المرسلات: 37] .
- الموضع الثامن عشر: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المرسلات: 40] .
- الموضع الحادي والعشرون: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المرسلات: 45] .
- الموضع الثاني والعشرون: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المرسلات: 47] .
- الموضع الثالث والعشرون: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المرسلات: 49] .

وإذا ما عدنا إلى الموضع الحادي عشر، وبدأنا من قوله تعالى: (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (10) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

والجديد أن السباق والسياق يتآزران في بيان ماهية هذا الويل الذي ينتظر المكذبين ، وأنه واقع بهم لا محالة ، وذكر معه بعض أهوال يوم القيامة (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا)

وذكرت صورة مرعبة للعذاب : (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا) .

والتبكيت والتقريع لهم : (أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ) .

والتوبيخ والتنكيل بهم (اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

وفي زحمة هذا الهول ، وفي ظل هذا الرعب المزلزل ، يعاجل المكذبين بما هو أهول وأرعب ، يعاجلهم بالدعاء عليهم في الويل من العزيز (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [1] .

(1) سيد قطب ، في ظلال القرآن (ج3394/6)

ولكن من هم المكذبون في هذا السياق؟

جاء الجواب بلون داكن جديد من الغفلة { فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ }.

من هم: (الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ) وخوفهم هذا دال على تمام غفلتهم وصدودهم ، فقد جاء مسبوقًا بحرف الدال على الغلو الاستفحال والملاسنة الشديدة ، فكأنما قد أحاط بهم [1] وجاء اللفظ نفسه (خوضٍ) على سبيل التنكير وذلك لغرضين :

الأول : أن يكون للتكثير أي في خوض كامل عظيم .

الثاني : أن يكون التنوين عوضاً عن المضاف إليه وهذا كله فيه ذمَّ شديد لهم [2] .

– (يلعبون).

– ومما يجمل ذكره هنا، ما أفاده حرف الفاء هنا (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) فالفاء أفادت الأمان للمؤمنين وهي لاتصال المعنى [3] .

والمعنى أنه سبحانه لما قال : (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ) لم يبين بأنه موقعه بمن؟ قال : (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) علم المخصوص به ، فمن لا يكذب لا يُعذب [4] .

12– المطلب الحادي عشر: { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } [المرسلات: 15] .

والملحوظة الأولى أن هذه الجملة ترددت في السورة عشر مرات من أولها إلى آخرها .

أما الملحوظة الثانية فقد خلت المواضع العشرة جميعها من رابط حرف الفاء مع (ويل) وقد ورد في مواضع سابقة .

وكغيره من العلماء توقف صاحب درة التنزيل وغرة التأويل [5] عند ظاهرة هذا التكرار المدهش لقوله تعالى : (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) في سورة المرسلات وتساءل [6] لم كررت هذه الآية عشر مرات ؟ وما الفائدة في تقديم ما بعد الأولى على الثانية ؟

وأجدني حتى نستطيع أن نجيب على ما سبق من سؤال أو أكثر متوجهًا أن أقسم الآيات إلى مجموعات بحسب ورودها الآية الكريمة (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) .

المجموعة الأولى من بداية السورة :

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (11) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (12) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (13) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (14) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [1–15] .

فإذا لاحظنا ما في القسم والمقسم به من معاني تهتز لها الجبال ، ثم ما تبع ذلك من الحديث عن أهوال يوم القيامة والتعظيم والتخويف من يوم الفصل ، ثم الويل والويل للمكذبين .

المجموعة الثانية : (أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)

---

(1) انظر الفخر الرازي ، التفسير الكبير (ج204/10)

(2) ابن عاشور ، التحرير والتنوير (ج56/27)

(3) انظر الفخر الرازي ، التفسير الكبير (ج203/10)

(4) المنصوري ، المقتطف من عيون التفاسير (ج101/5)

(5) انظر ، الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل (ص293)

(6) انظر المصدر السابق (ص293)

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) .

وهذا تهديد من العيار الثقيل ، بالإشارة إلى صفحة الهالكين والغابرين من الأولين والآخرين ، وما في ذلك من سنن ماضية تجري على أشباههم من المجرمين والمكذبين .

المجموعة الثالثة : (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (20) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (21) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (22) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (23) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) .

الامتنان عليهم ووخز ضمائرهم بنعمة الخلق والنشأة الإلهية وهي رحلة مع النشأة الجنينية طويلة عجيبة ، يجملها في لمسات معدودة ، ماء مهين ، يودع في قرار الرحم المكين إلى قدر معلوم وأمل مرسوم .

المجموعة الرابعة : ثم ينتقل بنا السياق إلى جولة في الأرض (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (26) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) ،(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) .

ألم نجعل الأرض كفاتا ، مختصين ببثيها أحياء وأمواتا ، وجعلنا فيها رواسي شامخات سامقات ، تتجمع على قممها السحب ، وتنحدر عنها مساقط الماء العذب أفيكون هذا إلا عن قدرةٍ وتقدير وحكمةٍ وتدبير؟ أفبعد هذا يكذب المكذبون [1] .

المجموعة الخامسة : (انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (29) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ (33) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) .

سياق جديد وأجواء صعبة ، ليأخذ هؤلاء المكذبون طريقهم إلى العذاب في تأنيب مرير وإيلام عسير [2] .

فهذا ظل جهنم ينتظركم ، وتسميته بالظل مزيد تهكم بهم وتقريع لهم ، سيحيط بكم شرر جهنم من كل جانب ، وما ترون هذا مجرد شررها فكيف بجهنم التي ينطلق منها الشرر ؟! حقاً الويل لكم جزاء تكذيبكم (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) .

المجموعة السادسة : (هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) .

ولا أستطيع أن أتجاوز ما جرى به القلم من سيد قطب من كلمات معبرة ، فالهول هنا يكمن في الصمت الرهيب ، والكبت الرَّعيب ، والخشوع المهيب ، فلا كلام ولا اعتذار .

المجموعة السابعة: (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (38) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (39) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) .

صورة مخيفة جديدة من جمع الأولين والآخرين ، وهم في غاية العجز فلا قدرة ولا كيد ولا تدبير ، صمت ووجوم تهتز له الأركان ويقف له النفس .

المجموعة الثامنة : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) .

وهذا مشهد يكفكف الدمع ، فما سبق من مشاهد ينصدع لها القلب فتأتي هذه اللمسة الرقيقة كالنسيم تبث الأمل وتجبر الخواطر .

(1) سيد قطب ، في ظلال القرآن (ج3793/6)

(2) المصدر السابق (ج3793/6)

فهاهم المتقون في ظلال حقيقية هذه المرة ! لا ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب ! وفي عيون ماء لا في دخان خانق يبعث الظمأ (وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ) ، ولكن مع ذلك (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) ، فهم الخاسرون .

المجموعة التاسعة: (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (46) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) .

فلتشهدوا الفارق بين الموقفين ، كلوا وتمتعوا قليلاً في هذه الدار ، لتحرموا وتعذبوا طويلاً في تلك الدار (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) .[1]

المجموعة العاشرة : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (48) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (49) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

فكم عُرِض عليهم الهدى فاستنكفوا واستكبروا ، أو بعد هذا الحديث والإنذار من حديث أو إنذار .

حقًا إنه الشقاء والتعاسة والمصير البائس ، والويل المدخر لهذا الشقي المتعوس [2] .

الموضع الواحد والعشرون والثاني والعشرون وكلاهما في سورة المطففين .

الأول: (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) في مطلع السورة [المطففين: 1] .

الثاني: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المطففين: 10] .

ويظهر أننا الآن أمام صنف لئيم حسود جديد (المطففين) وهم من عرفت بهم الآيات وفضحتهم على الأشهاد (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) .

إذن هم شرذمة من الكبراء والبغاة والطغاة والتجار ممن يلبسون لباس الدين ، فيدلسون على الناس ، فيأخذون منهم حقهم مستوفىً كاملاً في حالة شرائهم ، أما في حالات بيعهم فينتقصون للناس من بضائعهم وحقوقهم ، ويظهر أن هذه ظاهرة وجريمة متكاملة الأركان كانت سائدة في مجتمع مكة وما حولها ، مما زاد من جشع هؤلاء التجار واحتكارهم فهم (يكتالون على الناس) ، لا من الناس ، حتى أصبح لهم سلطانا للابتزاز والتطفيف وأكل أموال الناس بالباطل .

وهذه طبيعة هذا الدين الربط بين الواقع والسلوك والعقيدة والشريعة والعبادات والمعاملات ، وبالتالي بينت الآيات الكريمة من بعد علة فعلهم القبيح هذا (أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

إذن نحن أمام ميدان جديد في غاية الخطورة ، ميدان أموال الناس وحقوقهم فإن لم يكن ثمة وازع ينطلق من عقيدة راسخة من الإيمان بالله واليوم الآخر فإن أموال الناس وحقوقهم ستبقى مستباحة لأصحاب القلوب القاسية والأكباد الغليظة والبطون الواسعة من الحسادة والكبراء .

فذكر سبحانه لهم ثلاثة أنواع من العذاب :

- عذاب الجحيم .
- وعذاب التوبيخ واللوم .
- وعذاب الحجاب عن رب العالمين ، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم ، وهو أعظم عليهم من عذاب النار [3] .

أما الموضع الثاني من سورة المطففين: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) وهو الموضع الأخير بهذه الصيغة ، وبالتالي لحقه شيء من

(1) سيد قطب ، في ظلال القرآن (ج3795/6)

(2) انظر المصدر السابق (ج3795/6)

(3) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص1080)

التفصيل .

فمن هم المكذبون :

1- (الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) .

2- (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) " متجاوز للحد في الطغيان ، غالٍ في التقليد الأعمى ، حتى استبعد قدرة الله تعالى على الإعادة و(أثيم) منهمك في الشهوات بحيث شغلته عما وراءها ، وحملته على الإنكار [1] ".

3- (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) .

4- (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) " والرين الصدأ ، ثم أطلق على الغطاء ، فمراتب الظلمة على القلب مختلفة ، فبعضها يكون ريناً وبعضها طبعاً وبعضها أقفالا [2] " (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) وأي مصيبة أعظم من أن يحرموا ويحبسوا عن النظر إلى ربهم سبحانه، فهو سبحانه حجب أعداءه وتجلى لأوليائه .

6- (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ) .

7- (ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

وهكذا فإن الآيات تختم بالإشارة إلى أصل الداء وعلة العلل وهو الكذب ، بدأ بإنكارهم للبعث والنشور واليوم الآخر ، إذ وصفوا الوحي الصادق والقرآن المنزل المعجز بأنه من الأساطير والخرافات التي وردت عن السابقين .

فقست قلوبهم مما ارتكبوه من ذنوب وجرائر وكبائر .

فكانت العقوبة لهم أشد ما تكون فاستحقوا الويل ، وأي ويل أعظم من: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) .

المطلب الثالث عشر : (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) .

ويظهر أن التفصيل هنا لا للهمزة اللمزة فحسب ، بل إنه تفصيل للويل كذلك ، فالهمزة اللمزة من هو ؟ ويأتي الجواب من باب آخر بأنه (الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) ؟! فما علاقة الهمزة اللمزة بالمال وطول الأمل ؟ هل من علاقة؟

والجواب والله أعلم بما ينزل أن هذا الذي يلمز الناس ويهمزهم ويزدريهم وينتقص منهم ويأكل لحومهم ويطعن عليهم وفيهم ، إنما حمله على ذلك ما عنده من المال الوفير والرزق الواسع .

أما تفصيل الويل (ويل) والتي جاءت بصيغة التنكير ، فثمة تفصيل جديد ههنا ، **فمن أنواع الويل :**

- (كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ) " والحطمة اسم صفة من أسماء النار لأنها تحطيم من فيها [3] بل تتأجج وتحطم وتكسر ما يلقى فيها ، كما أن شأنه كسر أعراض الناس [4] " .

(1) المقتطف من عيون التفاسير (ج454/5)

(2) المصدر السابق (ج454/5)

(3) انظر، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج2071/4)

(4) انظر المنصوري ، المقتطف من عيون التفاسير (ج564/5)

– (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ) " هي موقدة بأمر الله عز سلطانه ، وفي إضافتها إليه سبحانه ، ووصفها بالإيقاد ، من تهويل أمرها ما لا مزيد عليه [1] ".

(إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ) .

– ولو أردنا ههنا أن نستخلص من أفراد الويل مما مرّ معنا لخرجنا بما يلي :

– فمن مفردات الويل كما في الموضع الثاني العذاب الشديد (وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) [إبراهيم: 2].

– ومن مفرداته كذلك ما في الموضع الثالث مشهد يوم عظيم (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [مريم: 37] .

– ومن صوره كذلك النار (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) [ص: 27] .

– ومن صوره كذلك كما في الموضع الثامن العذاب الأليم (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) [الزخرف: 65] .

– ومن مفرداته كذلك ما جاء من تفصيل في سورة الطور من حديث عن أهوال القيامة ، وأنهم بعد ذلك يدعون إلى نار جهنم دعا حتى يصلوها (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

– ومن مفرداته كذلك ما ذكر من أهوال يوم القيامة في مطلع سورة المرسلات ، وما ذكرت من صنوف من العذاب تذوب لها الجبال الصم الشمّ من لهيب النار ووصبها (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ) .

– ومن مفرداته كذلك ما ذكرته سورة المطففين من حرمانهم من رؤية الواحد القهار وهذا تالله لهو أعظم أنواع الويل وما يلحق ذلك من صليهم بالنار (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ) .

– (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) أي تعلو أوساط القلوب ، وتشتمل عليها وتخصيصها بالذكر في الآية بالفؤاد لأنه ألطف ما في البدن ، وأشد تألمًا ، ولأنه محل العقائد الزائفة .

– (إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ) والمقصود أن النار مطبقة عليهم .

– (فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ) توصد عليهم الأبواب ، وتمدد فوق الأبواب العمد أيضاً إيذانا بالخلود إلى ما لا نهاية، اللهم أجرنا منها يا خير مستجار [2].

وهكذا توجه الويل مع تفصيل جديد لمن نال من أموال الناس كما في المطففين ، ونال من أعراضهم كما في الهمزة .

وتالله ثم والله إن ما ذكر من تفصيل للويل في سورة المرسلات وسورة الهمزة لمما تقشعر له الأبدان وتشيب له الولدان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

المطلب الرابع عشر: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ) [الماعون: 4] .

وأول ملحوظة تسجل ما يتعلق بحرف الواو إذ يشترك معه ، مواضع ثمانية .

(1) المصدر السابق (ج5/564)

(2) المنصوري ، المقتطف من عيون التفاسير (ج5/564 –565)

1- الموضع الأول : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) [البقرة: 79] .

2- الموضع الثاني : (اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)

3- الموضع الثالث : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) [ص: 27] .

4- الموضع الرابع : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [الزمر: 22] .

5- الموضع الخامس : (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) [الزخرف: 65] .

6- الموضع السادس : (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) [الذاريات: 60] .

7- الموضع السابع: (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [الطور: 11] .

8- الموضع الثامن : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ) [الماعون: 4] .

الملحوظة الثانية : من جديد يظهر موضوع السلوك والأخلاق والمعاملات والمرتبط إيجابًا أو سلبًا بالعقيدة .

فالمكذب بيوم الدين انحرف عن الجادة ، وتجاوز مكارم الأخلاق وقام بأعمال شنيعة :

1- (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) .

2- (فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ) .

3- (وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ).

4- وغفل عن أعظم العبادات (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ) .

5- (الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ) .

6- (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) .

وتأمل معنى المضارعة في الأفعال الخمسة (يكذب ، يدع ، ولا يحض) (يراءون) (ويمنعون) ، وما فيها من التشخيص والتصوير لأفعال قبيحة مستنكرة ، وما فيها من معنى الاستمرار والإصرار والديمومة والتكرار.

وتأمل ما أفاده حرف الفاء (فويل) .

- فإن كان للسببية ، فهذا يقتضي اتحاد المصلين والمكذبين .

وبالتالي يصح أن يراد بـ (المصلين) الكفار ، وسهوهم عن الصلاة تركها بالكلية [1] .

والمعنى أن الدعاء عليهم بالويل متسبب عن الصفات الذميمة ، وعلى هذا فإن وصفهم بالمصلين أيضاً تهكم بهم، والمراد عدمه .

ولا يغيب عن البال هنا أن مشركي مكة كانوا يصلون بصورة وهيئة تختلف عن صلاة المسلمين، بل كانوا في أثناء صلواتهم يشغبون على النبي ﷺ وأصحابه، ويستهزؤون بهم وبصلاتهم بل ويصدونهم عن المسجد الحرام ، وهذا فعل قبيح شائن يستحق الويل والثبور المذكور في سورة الماعون (فويل للمصلين) .

(1) الرقب، أحمد سليمان، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية (ص35-36) (ج9) – العدد (2/أ)

أرأيتم إلى قوله تعالى: (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) [الأنفال: 35] .

فقد كانوا بحسب ما نقله ابن كثير عن ابن عمر يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون ؟! وكانوا إذ يفعلون ذلك يقصدون التشويش على النبي ﷺ وأصحابه سخرية واستهزاء [1] .

ويا له من فعل قبيح يستأهل أصحابه الويل ، إذ يقوم أصحابه بالتصفيق والصفير والهمز واللمز والغمز والهزء والسخرية ، والقوم أعني المصلين واقفين خاشعين بين يدي ملك الملوك يرجون رحمته ويخشون عذابه ؟!

الملحوظة الثالثة : الكذب أصل الداء ومنبع الشر، **فقد جاء الويل فيما سبق هذه السورة مسلطًا على المكذبين في المواضع التالية :**

1- (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) [الجاثية: 7] .

2- (فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [الطور: 11] .

3- (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [عشرة مواضع من سورة المرسلات] .

14- (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) [المطففين: 10] .

15- ثم جاء سياق آخر جديد ، فعقب قوله تعالى من سورة المطففين (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) جاء قوله تعالى : (الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (11) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) .

وتأمل النص على الكذب في الآيات الثلاثة ؛ مما يدل على أنه مكمن الخطر ، ورأس البلاء .

16- ثم جاء قوله تعالى أخيراً (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) .

ولله در البقاعي فقد أسعفنا ههنا بما لا مزيد عليه ، قال: ولما كان المراد بهذا الجنس على اعتبار أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وكان من المكذبين من يخفي تكذيبه ، عرفهم بأمارات تنشأ من عمود الكفر الذي صدر عنه ويتفرع منه [2] .

وبهذا تبين أن علاقة التكذيب بالبعث يترتب عليها إيذاء الضعيف ومنع المعروف.

(1) انظر ، المصدر السابق (ص35-36) (ج9) – العدد (2/أ)

(2) انظر، البقاعي ، نظم الدرر (ج278/22)

الخاتمة

وفيها أبرز النتائج والتوصيات :

النتائج : أبرزها :

- الفطرة اللغوية والقرآنية للفظ القرآني يجعله مستقلاً برأسه مستغن بنفسه من أي نقولات لم تصح .
- الوعيد الشديد لمن ارتكب أياً من الجرائر الخطيرة التي تناولتها مادة (ويل) في جانب العقيدة أو السلوك أو في كليهما معًا .
- التكامل البديع بين آيات القرآن الكريم من جوانب متعددة ومنها اللغة والدلالة والسياق .
- رسمت مواضع "ويْل" صورًا مرعبة من صور العذاب يوم القيامة .
- إن هذا اللفظ بمواضعه المختلفة يستقل برأسه عنوانًا مؤثرًا من عناوين أهوال القيامة والعذاب بمختلف أشكاله .

أما التوصيات فأبرزها :

- توظيف مادة (ويلٌ) من خلال الأساليب والأدوات التعليمية ، لتساهم في بناء شخصية المسلم بناءً إيجابياً متوازنًا .
- ابتكار صحائف أو بطاقات أعمال تصنف الانحرافات المتصلة بالعقيدة والإيمان ، والانحرافات المتعلقة بالسلوك والأخلاق من الكذب ونحوه ، وصولًا إلى تضمينها مناهج التربية والتعليم .
- كما أوصي الباحثين والدارسين في مجال التذكير بأهوال وعذاب يوم القيامة تضمين هذه المادة في مختلف المناهج الدراسية .

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية:

1. الأزهري . محمد (2001). *تهذيب اللغة*. ط1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
2. الإسكافي، محمد. (1995). *درة التنزيل وغرة التأويل*. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية.
3. الألوسي، السيد محمود. (1407هـ). *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. ط3. بيروت : دار الكتب العلمية.
4. البقاعي ، (2001) . إبراهيم . *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*. دار الكتاب الإسلامي ، ط1 ، القاهرة .
5. الترمذي. محمد بن عيسى.(1998). رقم (2675). د. م . دار الغرب الإسلامي.
6. أبو حيان. محمد. (1420هـ). *البحر المحيط في التفسير* . ط1. بيروت: دار الفكر.
7. الراغب. الحسين. (2002). *مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب*. ط3. بيروت: دار القلم.
8. الرقب. أحمد سليمان. (2013). *سورة الماعون دراسة قرآنية المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية*. العدد (2/أ). جامعة آل البيت. الأردن.
9. ابن الزبير. أحمد. (1983)، *ملاك التأويل*. ط1. بيروت: دار الغرب.
10. الزمخشري. محمود. (1407هـ). *الكشاف*. ط3. بيروت: دار الكتاب العربي.
11. السعدي. عبدالرحمن. (1420هـ). *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان*. ط1. د.م: مؤسسة الرسالة.
12. أبو السعود. محمد.(982هـ). *إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم*. ط1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
13. الطبري. محمد. (1420هـ). *جامع البيان في تأويل آي القرآن*. ط1. د.م: مؤسسة الرسالة.
14. ابن عاشور. محمد. (1420هـ). *التحرير والتنوير لابن عاشور*. ط1. د.م: مؤسسة التاريخ.
15. عبد الباقي. محمد. (1988). *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم*. ط1. القاهرة: دار الحديث.
16. ابن عطية. عبدالحق. (1422هـ). *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*. ط1. بيروت: دار الكتاب العلمية.
17. ابن فارس. أحمد. (1405هـ –1980). *مقاييس اللغة*. ط3. د.م: مكتبة الحلبي.
18. الفخر الرازي. محمد. (1420هـ). *التفسير الكبير*. ط3. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
19. القاسمي. محمد. (1424هـ). *تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل*. ط1. القاهرة: دار الحديث.
20. قطب. سيد. (1996). *في ظلال القرآن*. ط25. أين مكان النشر
21. ابن كثير. إسماعيل. (774هـ). *تفسير القرآن العظيم*. ط2. د.م: دار طيبة.
22. مسلم. مسلم. *المسند الصحيح* . رقم (1017).
23. المنصوري. مصطفى. (1996). *المقتطف من عيون التفاسير*. ط2. بيروت: دار القلم.
24. ابن منظور. محمد. (1999). *لسان العرب*. ط3. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

Sources and References

- Abdel-Baqi, M. F. (1988), The Indexed Dictionary of the Words of the Holy Qur'an, (In Arabic), pp, 768, 769. Ed. 1408-1988. Dar Al-Hadith, Cairo.
- Abu Al-Saud, M. (982 AH) - Guiding the healthy mind to the merits of the Holy Quran, (In Arabic), Vinterpreted by Abu Al-Saud. Ed. 1/120. House of Arab Heritage Revival, Beirut.
- Abu Hayyan, M. (745 AH) Al-Bahr Al-Mohit for interpretation. (In Arabic), 1/436, 1420 AH - Dar Al-Fikr, Beirut
- Al-Alusi, S, (1270 AH). The spirit of meanings in the interpretation of the Great Qur'an and the Seven Repetitions. (In Arabic), i 3. Beirut: House of Scientific Books.
- Al-Sabi Al-Mathani 14/24, 3rd Ed., 1407 AH, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, (In Arabic), Beirut.
- Al-Azhari, M. (2001). -370 A.H.- Refining the Language (In Arabic), 5/192, Ed. 1, 2001, House of Arab Heritage Revival. Beirut.
- Al-Fakhr Al-Razi, M. (606 AH). The Great Interpretation, Keys to the Unseen (In Arabic), 3/565, 3rd Edition, 1420 AH, House of Arab Heritage Revival, Beirut.
- Al-Iskafi, M., (420 AH). Durat al-Tanzil wa Ghurat al-Ta'weel, (In Arabic). p. 293. Edition 1, 1416 AH - 1995 AD, Dar al-Kutub al-Ilmiyya - Beirut.
- Al-Mansoori, M. (1996). Extracted from the eyes of interpretation. – Muqtataf Oyoun Al-Tafseer (In Arabic). 4/597. 2nd Ed., 1417AH-1996AD, Dar Al-Qalam, Beirut.
- Al-Qasimi, M. (1332) Interpretation of Al-Qasimi called "Best of Interpretations" (In Arabic), 1/376. 1424 AH - 2003 AD, Dar Al-Hadith, Cairo.
- Al-Ragheb, A. (425 AH). Words of the Noble Qur'an for Al-Ragheb, (In Arabic), p. 129. 3rd edition, 1423 AH, 2002 AD, Dar Al-Qalam, Beirut.
- Al-Raqb, A. (1434 AH). The Jordanian Journal of Islamic Studies (In Arabic), p. 35, 36 Volume 9 - Issue (2 / A) 1434 AH / September 2013 / Jordan Al al-Bayt University.
- Al-Saadi, A. (1376 AH). Al-Karim Al-Rahman Facilitation of the interpretation of the words of Manan, (In Arabic), p. 960, 1420 AH, Al-Resala Foundation.
- Al-Tabari, M. (310 AH), Jami' al-Bayan for Holy Qur'an interpretation (In Arabic), 2/76 2-269, 1420 AH. Ed., Al-Resala Foundation.
- Al-Zamakhshari, M. (538 AH). The torch (translation) Al-Kashshaf (In Arabic), 4/122, 3rd Edition 1407 AH, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut.
- Ibn al-Zubayr, A. (1983). The interpretation knowledge (translation) Malak al-Ta'weel (In Arabic),. 2/796. 1st edition 1983-1403 AH, Dar al-Gharb, Beirut.

- Ibn Ashour, M. (1973) Liberation and Enlightenment. (In Arabic), Ed. 1/557, 1420 - 2000, Al-Tarikh Foundation.
- Ibn Attia, A. (542 AH) - Al- Muharer Al-Wajeez (Brief editor) in the interpretation of the honorable book, (In Arabic), 1701, Ed.1, 1422 AH. Dar Al-Kutub Al-Elmia, Beirut.
- Ibn Faris, A. (395AH). The language standards of Ibn Faris. (In Arabic), 3rd Ed., 1405 AH - 1980, Al-Halabi Library.
- Ibn Katheer, I. (774 AH) Interpretation of the Great Qur'an. (In Arabic), Pp. 1/114-1115, 2nd Edition 142 AH. Dar Taibah.
- Ibn Manzur, M. (711 AH). The language of the Arab – (translation) Lisan al-Arab by Ibn Manzur (In Arabic). 1/166-167. 3rd floor 14191 AH -1999, House of Revival of Arab Heritage, Beirut.
- Muslim, M. (261). The Al-Musnad Al-Sahih, (In Arabic), Ed. (1017), and Al-Tirmidhi, Muhammad Bin Issa T. 279 A.H. No. (2675). Dar al-Gharb al-Islami, 1998.
- Qutb, S. (1385 AH) In the shadows of the Qur'an. (In Arabic), 4/2372-2373 with some disposition. Edition 25, 1417 A.H. - 1996 A.D.